# الطاقة الإبداعية

إذا كان الإسلام قد وضع من الأسس والمبادئ ما يضمن حسن استغلال الطاقة البشرية من خلال تعهد الأبناء بالاهتمام والرعاية، فإنه فضلا على ذلك حرص على توظيف طاقات أبنائه الإبداعية كل في مجاله بما يضمن له خدمة المجتمع في الموقع الذي يعمل به حتى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "كل منكم على ثغرة من ثغر الإسلام الله الله أن يؤتى الإسلام من قبله".

ويأتي الحفاظ على قيمة الإبداع في الإسلام من خلال حرصه على إظهار تمييز الله للإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى بالعقل، فمن استعمله فيما هو له فقد استحق التكريم، ومن عمل غير ذلك سقط من درجة الإنسانية، وتدنى إلى درجة الحيوانية، ولم يستحق التكريم من الله عز وجل، الذي لا يمكن الحصول عليه إلا بشرط أن يبقى العقل محافظا على حدوده التي إن تخطاها سقط في الجهل والخرافات وتردى في المهالك، لأن العقل مهما بلغ من درجات النضوج فإنه في حاجة دائمة إلى من ينير له الطريق، ويكشف له عن معالمه، فكان من عون الله أن جعل الشريعة هي الحاكمة

على العقل، توضح له ما غاب عنه، وتقنن له عملية التفكير، ومتى يجوز، ومتى يحرم... إلى غير ذلك من الأمور.

ومن الثابت أن المشاهير من نجوم الرياضة والفن لهم تأثير واضح على النشء الصغير من خلال شهرتهم وتعلق الكثيرين بهم، وكنت أتبنى موقفا ربما عارضني فيه البعض، يختص بأزمة الجيل الحالي، حيث كنت دائما أرى أن مشكلة الجيل تكمن في أن من يفترض فيهم أن يكونوا قدوة له، معظمهم دون المستوى الذي يؤهلهم للقدوة، وبالتالي فإن الشباب والمراهقين يقلدونهم في سلوكيات يفترض ألا تكون نمطا في الحياة ، ولكن تكرراها أمامهم وتعظيم بعض وسائل الإعلام لها فرضها كواقع على الشباب لا يجدون بدا من تقليده، لأنهم بكل بساطة يظنون أنه طالما أن هؤلاء نجوم فلابد أن طريق النجومية يبدأ بما انتهوا إليه.

وكانت هذه هي الكارثة التي قادت الشباب إلى التخلق بأخلاق غير التي تعارف عليها المجتمع والظهور على أشكال غير التي ألفها وارتداء نوعيات من الثياب غير التي تعارفت عليها ثقافته، لكن وعلى الرغم من ذلك قد يبدو في الأفق نوعية من النجوم ممن يعيدون للفن مكانته ووقاره وللنجومية سابق عهدها في قيادة المجتمع إلى ما فيه صالحه والتأثير على الأجيال بالشكل الذي ينبغي حتى تكون المحصلة جيل تفاعل كل أعضاءه من أجل الظهور بالمظهر الحسن الذي ينبئ عن تراثنا الثقافي والحضاري، خاصة أن الإسلام قد أطلق للعقل

العنـان في التفكـير في هـذا الكـون مـن حيـث التأمـل في نظامـه، واكتشـاف أسـراره، والبحـث في عللـه وأسـبابه، وكذلـك التأمـل في عـالم النفـس وسـبر أغوارهـا.

والقـرآن في كثـير مـن آياتـه يحـث علـى التأمـل والتعقـل والتدبر في ملكـوت السـموات والأرض، قـال تعـالى: "إِنَّ فِي خَلْـقِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِـلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهَـارِ لآيَـات لأُولِـي الأَلْبَـابِ"(آل عمـران- ١٩٠) وقـال تعـالى: "سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِي الآفَـاقِ وَفِي أَنْفُسِـهِمْ"(فصلت - ٥٣).

والإسـلام باحترامـه للعقـل وتقديـره لـه يحـارب الجهـل والخرافـة، فهمـا آفـة العقـول، حيـث يُغيّـب العقـل ويُسـلب منـه أعـز مـا يملـك وهـو النظـر والتفكـير، لـذا جـاء المنهـج الإسـلامي هادمـا للخرافـة والوهـم والتقليـد، ومنبهـا العقـل للتأمـل والتفكـير، ومـن خـلال العقـل فتـح الإسـلام أمـام أتباعـه آفـاق الإبـداع، شـريطة أن تكـون متسـلحة بالعلـم والمعرفـة حتـى لا تنزلـق في مصيـدة الكفـر ولإلحـاد تحـت ادعـاء حريـة الإبـداع.

والإبـداع الـذي هـو الإيجـاد الإنشـاء علـى غـير مثـال سـبق، يقـول الله تعـالى " بَدِيـعُ السَّـمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّـى يَكُـونُ لَـهُ وَلَـدٌ وَلَمْ تَكُـن لَّـهُ صَاحِبَـةٌ وَخَلَـقَ كُلَّ شَـيْءٍ وهُـوَ بِـكُلِّ شَـيْءٍ عَلِيمٌ"(الأنعـام-١٠١)، فـإن الأحـق بـه هـو الله، فالإبـداع الحقيقـي مـن الله تعـالى، لكـن إذا أطلـق الإبـداع علـى مـا يفعلـه الإنسـان فهـو إبـداع نسـبي، بمعنـى أن الإنسـان قـد يأتـي بجديـد أو يقـود صياغـات جديـدة.

والإبداع الذي ينادي به البعض باسم حرية الرأي يجب أن يقنن ويؤطر بحدود معلومة للجميع، فمن الواجب أن نبين أن الحرية من أكثر الكلمات المظلومة في هذا العصر، حيث يتشدق بها البعض بلا قيود أو حدود، لذلك من الواجب أن نتعرف على مفهوم الحرية قبل أن ننادي بها، والحرية التي يطالب بها الإسلام هي حرية الرأي والفكر والعمل، وهي جميعا بمعنى أن يطلق الإنسان لعقله العنان في التأملات الكونية والاجتماعية "قل انظروا ماذا في السموات والأرض قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض".

ويجب أن يكون هذا المعنى في إطار عدم اقتحام المجالات التي لا علم لمن أراد الحرية بها، وهذه الحرية الفكرية لابد وأن تكون في إطار "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا"، وهو الأمر الذي يؤصل لما يمكن أن نطلق عليه (حرية الفكر المسؤولة)، وليست حرية الفوضى، لأنه من المفترض أن تكون هناك ثوابت وقوى وحمى، ونحن كمسلمين أحق الناس بالقيم ومبادئ الأخلاق والحرية، ولكن في إطار أمانة الكلمة وضوابطها والحرية المسؤولة، وإذا كان الناس يتنادون بحرية الرأي، فإن الإسلام مع هذه الحرية، بحيث يستطيع كل إنسان أن يعبر عن رأيه في إطار قول الله تعالى "وقولوا للناس حسنا" وفي إطار قوله " وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ" "(الحج- ٣٠)، فإذا لم يكن القول كذلك فإنه أبعد ما يكون عن الحرية،

بـل يمكننـا أن نسـميه فوضـى أو همجيـة أو أي شـيء آخـر.

ويستطيع المدقـق أن يتأكـد أن حريـة الإبـداع مطلوبة في الإسـلام لأنـه يدعـو إلى الـرأي الناهـض والرشـيد ويحـرص علـى الفكـر السـديد، لكنـه في الوقـت ذاتـه يرفـض أن تكـون حريـة الإبـداع إهـدارا للقيـم واسـتهزاء بالديـن وخروجـا علـى الآداب بدعـوى الثقافـة والتنويـر، فـإن الإسـلام يرفـض ذلـك لأن الثقافـة والتنويـر مـن وجهـة نظـر الإسـلام هـي معـان جميلـة يحـرص

عليهـا وينـادي بهـا ويدعـو النـاس للسـير في ركابهـا في إطـار الضوابـط الأخلاقيـة والقيـم العليـا الرشـيدة.

وإذا كانـت حريـة العمـل مكفولـة لـكل النـاس اسـتجابة لقـول الله تعـالى " هُـوَ الّـذِي جَعَـلَ لَكُـمْ الأَرْضَ ذَلُـولاً فَامْشُـوا فِي مَنَاكِبِهَـا وَكُلُـوا مِـنْ رِزْقِـهِ وَإِلَيْـهِ النُّشُـورُ "(الملـك – ١٥) فليـس مـن حـق إنسـان أن يكتسـب حرامـا أو يعتـدي علـى حقـوق الآخريـن، فحريـة العمـل مكفولـة بقـول الله تعـالى "واعملـوا صالحـا".

هكـذا يمكننـا أن نفهـم مـن هـذه القيـم، عـدم وجـود حريـة مطلقـة لا تتقيـد بقيـد ولا تلـوي علـى قيـم وإنمـا دائما وأبـدا الحرية للإنسـان تنتهـي عنـد حريـة الآخريـن وحـدود القيـم والأخـلاق ومـا ينبغـي الالتـزام بـه بمـا يضمـن تنشـئة الأجيـال علـى القيـم العليـا والاسـتنارة، الـتي يحملهـا الإسـلام حمـلا كريما، يكفـي أن أول آية في القـرآن الكريـم "اقـرأ باسـم ربـك الـذي خلـق، خلـق الإنسـان من علـق، اقـرأ وربـك الأكـرم الـذي علـم بالقلـم" والقـرآن الكريـم يحمل

دعـوة صريحـة للإبـداع، حيـث يوجـه النفس إلى جمـال السماء، وإلى جمـال الكـون كلـه " قـل انظـروا مـاذا في السـموات والأرض" لأن إدراك جمـال الوجـود هـو أقـرب وأصـدق وسـيلة لإدراك جمـال خالـق الوجـود وهـذا الإدراك هـو الـذي يرفـع الإنسـان إلى أعلى أفق يمكـن أن يبلغـه، لأنـه حينئـذ يصـل إلى النقطـة الـتي يتهيـأ فيهـا للحيـاة الخالـدة، في عـالم طليـق جميـل، بـريء مـن الشـوائب، خاصـة أن أسـعد لحظـات القلـب البشـري هـي اللحظـات الـتي يتقبـل فيهـا جمـال الإبـداع الإلهـي في الكـون، ذلـك أنهـا هـي اللحظـات الـتي تهيئـه وتمهـد لـه ليتصـل بالجمـال الإلهـي ذاتـه.

وإذا كان الإسـلام يحتفـي بالجمـال والزينـة والإبـداع البيانـي، فكيـف يظـن بـه أنـه ديـن يعـارض الفـن والإبـداع؟

أمـا عـن تلـك النظـرة الـتي تـرى تعارضـا بـين الإسـلام والإبـداع فتعـود إلى الجهـل الفاحـش والإعـراض عمـا في كتـاب الله المقـروء "القـرآن العظيـم" وكتـاب الله المنظـور "الكـون" مـن آيـات الزينـة والبهجـة والجمـال والروعـة والتناسـق البديـع وإلى ضيـق الأفـق والقصـور عـن إدراك مـا فطـر الله الإنسـان عليـه مـن تعـدد الجوانـب، وعمـق الإحسـاس والشـعور، والنزعـة الجماليـة الكامنـة في روح الإنسـان.

وكمـا يشـير المرحـوم سـيد قطـب في كتـاب "التاريـخ فكـرة ومنهـاج" يصعـب أن نفهـم أي جانـب منفـرد مـن جوانـب الإسـلام المتعـددة، مـا لم نفهـم طبيعـة الإسـلام، كوحـدة متكاملـة.

ليس الإسلام شعائر تؤدى فحسب, وليس الإسلام دعوة أخلاقية فحسب, كذلك ليس الإسلام مجرد نظام للحكم, أو نظام للاقتصاد, أو نظام للعلاقات الدولية.. إن هذه كلها جوانب منفردة من جوانب الإسلام المتعددة ولكنها ليست هي كل الإسلام.

إن الإسلام حركة إبداعية خالقة, تستهدف إنشاء حياة إنسانية غير معهودة قبل الإسلام, وغير معهودة في سائر النظم الأخرى التي سبقت الإسلام أو لحقته.. تلك الحركة الإبداعية الخالقة تنشأ عن تصور معين للحياة بكل قيمها وكل ارتباطاتها, تصور جاء به الإسلام ابتداء وهي حركة تبدأ في أعماق الضمير ثم تحقق نفسها في عالم الواقع, ولا يتم تمامها إلا حين تتحقق في عالم الواقع.

وهذا هو أحد الفوارق الرئيسية بين طبيعة "المثالية" كما عرفت في الغرب, وطبيعة الإسلام.. إن المثالية أحلام تظل أحلاما لأنها تتطلع إلى عالم غير منظور, وغير مطلوب تحقيقه, إذ هو بطبيعته غير قابل للتحقيق في عالم الأرض, أما الإسلام فهو حركة إبداعية لتحقيق تصور معين للحياة قابل للتحقيق, وفي طبيعة النفس البشرية استعداد لتحقيقه, حين تستجيب لدعوته وحين تتأثر به تأثرا إيجابيا لا يكتفي بالمشاعر أو الشعائر.

وحين تستقر العقيدة الإسلامية في الضمير البشري استقرارا حقيقيا, فإنه يستحيل عليها أن تبقى ساكنة, يستحيل أن تظل مجرد شعور وجداني في أعماق الضمير.

إنها لا بد أن تندفع لتحقيق ذاتها في عالم الواقع, ولتتمثل حركة إيجابية إبداعية في عالم المنظور, حركة تبدع الحياة كلها, وما ينشأ عنها من ألوان وأطياف وتعمير.

وحتى يحقق الإبداع أهدافه المنشودة فقد فرض له الإسلام مجموعة من الضوابط التي لابد من الالتزام بها وعدم الخروج عليها، حيث يفترض أن يكون مرتبطا بفكرة الأصالة التي لا تخلع المجتمع الإسلامي عن ربقته، حيث يجب أن تبقى للمبدعين مرجعيتهم التي يتقيدون بها ولا يخرجون عليها، ملتزمين بثوابت الدين والعادات والقيم الاجتماعية والإنسانية، التي تحرص على أن تظل للمجتمع خصائصه وثوابته.

وهذا لا يعني التضييق على المبدعين، بل على العكس من

ذلك، يفتح الإسلام المجال أمام القدرة على إضافة تفاصيل جديدة ومتنوعة لفكرة ما أو حل لمشكلة من شأنها أن تساعد على تطوير حركة المجتمع، من خلال بعض القدرات العقلية التي تتضمن الوصول إلى افتراضات تكميلية تؤدي بدورها إلى زيادة جديدة ، من خلال مساحة الخبرة والوصول إلى خبرات جديدة، مما يساعد على تراكم الخبرات، لذلك فقد استنفر الإسلام العقل من أجل تنمية القدرة على التفكير الإبداعي من خلال العديد من الدعوات الصريحة إلى التفكير وإعمال العقل، وأيضا من خلال هامش الحرية والمساحة التي تركها للتفكير والابتكار في التفاصيل، شريطة الالتزام بالثوابت، بما يتيح الفرصة أما القدرة على إنتاج أفكار متنوعة ومتعددة وجديدة

وأكثر تفصيلاً، انطلاقا من التأكيد على أن هناك حاجة ماسة إلى تعليم يشجع على التفكير الإبداعي.

ومن المعروف أن الإسلام أشاد بالجمال الذي هو أصل الإبداع ونوه به في مواضع متعددة من القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، حيث يقول النبي صلى الله عليه وسلم "إن الله جميل يحب الجمال"، وانطلاقا من قيمة الجمال هذه، خلق الله الكون في قمة الجمال، وجعل الإنسان خليفته في الأرض، وخلقه في أحسن تقويم، قال تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"(التين- ٤).

وجعل الكون لوحة مبهرة تشتمل على آيات الجمال، فعندما يقول الله تعالى " أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ "(الغاشية- ١٧)، فإنه يشير إلى نموذجين من عظمة الخلق، أحدهما النموذج الحيواني المتمثل في الإبل، ثم النموذج الكوني المتمثل في الجبال، وعندما يتوسع القرآن الكريم في عرض النماذج الكونية، فإنه يعرض هذا التوسع مشفوعا بإشارة إلى الزينة والجمال "إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ" ويقول "وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ"، وعندما يتوسع في نموذج خلق الكائنات يلفت إلى جمال الأنعام التي يرونها، ويتمتعون بها، فقال: " وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ"(النحل- ٦" ويقول " وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ" (النحل ٨) ، وبالتالي، فإن الفن لا يعدو كونه محاولة للتعبير

عن هذا الجمال والحسن المنتشر في أرجاء الكون، ولعل هذه الرؤية هي التي أسست لمظاهر الفنون في الحضارة الإسلامية التي رسمت مسار العالم وحددت أهدافه الكبرى، من غير أن تلزم الفنان المسلم بصيغة واحدة للتعبير الفني. تحكمه فلسفة إسلامية صارمة تحدد هويته وتوجه مساره نحو غايته نحو غاية عظمى وهي الإيمان بالله، لذلك فمن الضروري أن ندرك أن الفن في الإسلام لم يكن نتاج تمرد على العقيدة الإسلامية، وإنما هو تأكيد على ثوابت العقيدة التي تبرز معالم الجمال في ملكوت السماوات والأرض، وهو الأمر الذي يحيلنا إلى دور المبدع المسلم في الدعوة إلى الله من خلال إنتاجه الإبداعي وتميزه الفني.

لذلك حرص الإسلام على غرس حب الجمال والشعور به في أعماق كل مسلم، حيث يريد من المؤمنين أن ينظروا إلى الجمال المنتشر في الكون كله، في لوحات رائعة الحسن ، أبدعتها يد الخالق المصور ، "الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ" (السجدة –٧).

"الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ". (الملك –٣) "وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ" ) النمل– ٨٨)؟ "، فالقرآن الكريم يلفت الأنظار ، وينبه العقول والقلوب إلى الجمال الخاص لأجزاء الكون ومفرداته، وبالتالي فإن القرآن يريد أن يوقظ الحس الإنساني ، حتى

يشعر بالجمال الذي أودعه الله فينا وفي الطبيعة من حولنا.

ومن خلال ذلك نستطيع أن ندرك أن الإسلام لا يصادر على الإبداع البشري، ولكن يقويه ويدع أمامه الفسحة الكافية لانطلاقه، ولكن وفق المعايير الدينية الثابتة، لذلك من غير المقبول أن ندعي أن الفن حالة من الحلم لا يجب أن تخضع لأي معايير دينية أو اجتماعية،

ولست أدري كيف يتخيل أحد أن الفن حالة حلم محررة من جميع القيود؟ وما الذي يرمون إليه من خلال هذه الدعوة الغريبة؟ التي لا أظنها سوى نوع من الفوضى المغلفة بسياج الفن، ولا أظنه وهو يتحدث من هذا المنطلق إلا شخصا لا يعرف ما هو الفن.

فالفن ليس حالة حلم، كما يدعون، بل هو تجسيد للواقع في قالب فني بصورة تعالج قضايا المجتمع التي يرغبون في التنصل من قيوده.

ثم أي فنون هذه التي يرخي لها صاحبها الحبل إلى أقصى مدى ممكن غير عابئ بقيم وعادات وتقاليد المجتمع؟

ولمن يقدمها إذا؟ أليس للمجتمع الذي يرغب في التحلل من قيمه؟ وعلى قيم من سيكون حلمه المزعوم؟ أعلى قيم الانحلالية وخلع عباءة الحياء وإثارة الغرائز والفتن؟

لا أظن أبدا أن هذه هي قيمة الفن ولا أظن أبدا أن مجتمعا عاقلا سوف يقبل هذه الترهات ولا أظن أبدا أن الفن بهذه

الطريقة سوف يقدم أي علاج مأمول لأي قضية مطروحة طالما أنه حالة من الحلم.

ثم أقول ماذا عن أولئك الذين لا يضعون حدودا لحالة الحلم المدعاة هذه؟ هل نتركهم وشأنهم دون مراجع أو رقيب، ماذا لو حلم أحدهم بأفلام إباحية، هل نتركه وشأنه إلى أن يتحول حلمه إلى كابوس يؤرق مخادع الأسرة، ثم نشكو سوء الأدب بين الشباب وقلة الحياء.

أعتقد أن للفن رسالة أعظم من ذلك وأعمق وأوقع، وأظن أن الفن الجيد قادر على الدق فوق رأس الانحلال الأخلاقي وليس تأصيله والدعوة إليه، وأعتقد أيضا أن مبدعينا إن لم يواجهوا هذه الدعوات المخربة فإن أحد منابع الإصلاح الهامة المتمثلة في الفنون سوف تجف مياهها بل لا أبالغ إن توقعت أنها سوف تستبدل هذه المياه بنيران تأكل في طريقها الأخضر واليابس.

★★★